الأهرام

المصدر :

التاريخ :

# الفلسطينيون ومطرقة التحديات القادمة

علي الجرباوي *

بعد مرور بضعة ايام على «التظاهرات» المنظمة بمناسبة عقد الاتفاق الفلسطيني - الاسرائيلي، والتي عمّت اما احتفاء او معارضة لتظهر في ما تظهر عمق وحدّة الانقسام في الشارع الفلسطيني المسيّس، بدات «الموجة» بالانحسار التدريجي وبدا الناس، بشكل عام، يعودون الى ممارسة طقوس روتين حياتهم اليومية، ولكن بوجود فارق اساسي: «الاتفاق» الذي سينفّذ بعد حين، ويغيّر بالنسبة للكثيرين مجرى ومغزى الحياة الفلسطينية على ارض الواقع.

ومهما تباعدت الاراء حول الاتفاق بين الفلسطينيين، بين مؤيد يرى به «انجازاً عظيماً»، ومعارض يعتبره «خيانة قومية»، وعلى الرغم من عملية «الحسابات» السياسية الدائرة حالياً بين مجموع القوى السياسية الفاعلة على الساحة الفلسطينية، وما ينجم عن ذلك من مواقف وتحالفات ومزايدات وصلت في بعضها حدّ المهاترات، فاننا جميعاً نعلم بان الاتفاق الموقّع في واشنطن سينفّذ. فالقوى الاقليمية والدولية، وعلى راسها الولايات المتحدة الاميركية، تقف وراء ليس ابرام الاتفاق فحسب، وانما تساند كلياً عملية تنفيذه ايضاً. وعلى راي وزير الخارجية الاميركي، الذي عبّر بوضوح عن الموقف الاميركي عندما خاطب المحتفلين بتوقيع الاتفاق في الساحة الخلفية للبيت الابيض فان هذا «الاتفاق يجب الا يسمح له بالفشل»، وحقيقةً فان القوى الخارجية جميعها، وعلى راسها الولايات المتحدة واسرائيل، ستحاول اقصى جهودها لانجاح تنفيذ الاتفاق. اما القوى السياسية داخل الساحة الفلسطينية فلا اظنها بقادرة على افشال تنفيذ الاتفاق على رغم ارتفاع صدى الاصوات وقوة بعض الحجج الرئيسية التي تقدّم عند تحليل الماخذ على الاتفاق وهي ماخذ حقيقية وجوهرية ومن الضروري عدم اغفالها. ولكن عامة الناس تتعايش بابعاده مع «الامر الواقع» بعد حدوثه وتتاقلم مع ما يفرضه عليها من وقائع ونتائج. فكيف اذا كان في هذا «الامر الواقع» وعود كامنة تؤمل هؤلاء الناس بتغيير احوال واوضاع حياتهم نحو الافضل؟!

ان اهم ما يحتويه الاتفاق «الناقص» الآن - يعترف المؤيدون امام المعارضين ان

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

هذا الاتفاق ليس سوى البداية - يتلخص بما يبعثه من «امل» في نفوس الفلسطينيين داخل الاراضي المحتلة بوقوع تحول ايجابي مستمر ومتطور في حياتهم وفي المستقبل. لذا فان التدرج في التنفيذ، ووجود المراحل الزمنية والمواعيد الكثيرة لتطبيق بنود متلاحقة، يعتبر العنصر الاساسي للقوة الدافعة لهذا الاتفاق. فالبرمجة المسبقة والمعلنة لتلاحق المواعيد المتصاعدة في تنفيذ بنود الاتفاق تغطي من جانب، النواقص الحادة التي يعاني منها الاتفاق انياً، وتعطي مؤيديه «قوة دفاعية» مؤثرة في «المعركة» الدائرة لاقناع عامة الناس. فكل العناصر الجوهرية الغائبة عن التحديد في الاتفاق، والتي تشكل مصدر قوة هجوم المعارضة ضده، يؤكد المؤيدون بانها كامنة الوجود فيه، وان المسالة لا تتعدى كونها مسالة وقت لتحقق هذه العناصر. فان سال سائل عن مستقبل القدس او المستوطنات الاسرائيلية او الدولة الفلسطينية يقال بجواب حاضر وسريع بان جميع هذه المسائل ستناقش في المرحلة التفاوضية الثانية، وانها لذلك لم تُترك خارج الاتفاق، بل هي جزء اساسي فيه. ومن هذا المنطلق، ويمكن تسميته بـ «التبريرية الاستبشارية»، يصبح الاتفاق «كاملاً»، وتكون المرحلة الاولى في التنفيذ مجرد «الفاتحة». ولكن اصرار المؤيدين للاتفاق على حتمية اكتمال المراحل وفقاً للرغبة الفلسطينية لا يترافق على الاطلاق بتقديم الضمانات الضرورية لتحقق ذلك من ناحية، او بتقديم صورة كاملة وواضحة عن مضمون الحل النهائي من ناحية اخرى. ولهذا السبب فان مؤيدي الاتفاق يطلبون من ويعملون على ان يمنحهم عامة الناس «الثقة» على اساس «الايمان» بقوة «كرة الثلج المتدحرجة» بدون «التحسب من المجاهيل» لكونها على «الضمانة الشخصية»!

كما وتعطي البرمجة الزمنية المسبقة لجدول مواعيد تنفيذ بنود الاتفاق من الجانب الآخر، عامة الناس شعوراً متنامياً بالارتياح لان قطار الحل انطلق اخيراً من المحطة، ممزوجاً بشعور من الاطمئنان بان القوة المحركة لهذا القطار ستؤدي به في الضرورة للوصول الى الحل المامول فلسطينياً. ويصبح هناك تناغم تكاملي تتراقص فيه مصالح عامة الناس مع مصالح قيادة «الاتفاق»، تنتج سوياً شعوراً عاماً بـ «الترقب الممزوج بالارتخاء». ويظن كثيرون، وعلى راسهم اعضاء في راس الهرم القيادي، ان وقت «الشدة» اخذ بالزوال، خاصة اذا تمّ استيعاب المعارضة، ليحلّ زمن «الانفراج». ومن الجدير بالانتباه والاهتمام ان تنامي الشعور التفاؤلي بين الفلسطينيين بشكل عام بان «الحل» سيسير بمراحل ولكن بانسياب تام لا يُعكر صفوه الا ما تقوم به حركات المعارضة من اعمال هو امر ينبع مباشرة من استراتيجية القيادة الفلسطينية الآن. فهل هذه الاستراتيجية على صواب، اما انها تنطوي على مغالاة؟ وهل سيتم السير تدريجياً نحو الحل بانسياب تام ام ان هناك ستكون عثرات رئيسية على الطريق؟ وهل يمكن اختزال سبب العثرات بتصرف المعارضة ام ان هناك عوامل وعناصر يسقطها المروّجون للتفاؤل من الحسبان؟

اعتقد قانعاً ان الصورة والمناخ والانطباع الذي يحاول مهندسو ومؤيدو الاتفاق خلقها عن المستقبل الواعد تتضمن مغالاة في التفاؤل من ناحية، وقفزاً عن مجموعة حقائق من ناحية ثانية، وتبسيطاً - ان لم يكن تغييباً - لنتائج تفاعل عدة عوامل ذاتية من ناحية ثالثة. وبالطبع لا يخفى على احد ان لمهندسي ومؤيدي الاتفاق مصلحة ذاتية في ابرازه بشكل ايجابي وتصوير المستقبل بازهى صورة مشرقة. ولكن قد تكون لهذه المصلحة الذاتية مخاطر ليس على الصعيد الوطني فحسب، وانما على مستوى نفس الذات، اذا تمحورت رؤيتها على الاهداف الانية السريعة وتناست الاهداف الابعد مدى. وباختصار، قد تكون القيادة قد بدات تصدق ادعاءاتها التي تطلقها لاسباب سياسية في محاولة لاقناع عامة الناس واسترضائهم، واصبحت تؤمن بانها لن تواجه تحديات خطيرة خارجة عن نطاق المعارضة ونابعة بالاساس من عامة الناس.

سيكون عامل الزمن هو اساس التحديات المستقبلية التي ستطفو على السطح مع بدء تنفيذ الاتفاق. فمع ان جدولة المراحل زمنياً تمنح كما ذكرنا انفاً الاتفاق قوة ستمده من «الابهام الايجابي» المتضمن فيه، الا ان عامل الزمن بالنسبة لعامة الفلسطينيين مقيد ومحدد وليس مفتوحاً بلا نهاية. وعلى هذا الاساس فان اهم ما تواجهه القيادة منذ توقيعها على الاتفاق لا ينحصر بمواقف المعارضة واعمالها فحسب، وانما بما تنامى لدى عامة الفلسطينيين - وبالتحديد داخل الارض المحتلة - من توقعات ايجابية. وعلى هذه القياد ان تاخذ باهم اعتباراتها ان عليها

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

تقع مسؤولية تلبية هذه التوقعات، وباسرع وقت ممكن.

ان محاولة القيادة الفلسطينية تحصيل تاييد سريع من اغلبية فلسطينية تبعث على الارتياح ادى بهذه القيادة لأن تلزم نفسها بتقديم وعود كثيرة وتفسيرات موسعة تخرج عن حدود الطاقات الموضوعية الكامنة بالاتفاق المبرم. وادت هذه الوعود والتفسيرات الى تحصيل دعم من حلقات واسعة، ولكن بعدان اعطتها توقعات مستنامية بتحسن الاحوال والاوضاع. واصبح الآن من المستلزمات ان تواجه القيادة «واقعاً» خلقته بذاتها لذاتها، وان تقوم بتحضير الوسائل والسبل للاستجابة لما خلقت من توقعات.

يمثل استمرار اعفاء الذات الفلسطينية من تحمل المسؤولية عن مجريات تشكيل الحياة الفلسطينية العامة راس هرم «التوقعات المتنامية» لنسبة كبيرة من عامة الفلسطينيين داخل الارض المحتلة حالياً. ففي السابق للاتفاق كان عامة الفلسطينيين تحت الاحتلال يرجعون معظم السلبيات في حياتهم ومجتمعهم لوجود الاحتلال، والذي شكل - وفي بعض الاحيان بغير وجه حق - «بوابة سهلة» للخلاص من تحمل مسؤولية محاسبة وتقويم الذات. فكل ما هو سلبي اصبح يُعزى، بحق او بغير حق، لسلطة الاحتلال. وبالطبع فان وجود سلطة احتلالية لفترة زمنية مديدة يفسر وجود الكثير من السلبيات، ولكنه لا يكفي لوحده لتفسير مجمل السلبيات التي يعاني منها المجتمع الفلسطيني. ولكن وجود مثل هذه «البوابة السهلة» ادى لأن تصبح السلطة الاحتلالية «شماعة» يُعلق عليها كل ما هو سالب وسلبي داخل المجتمع.

كما وادى وجود السلطة الاحتلالية المعادية الى ان يعفي الانسان الفلسطيني نفسه من القيام بمعظم المهام والواجبات العامة الملقاة على الانسان في الوضع الطبيعي، اي عندما يعيش في ظل سلطة وطنية. فالتعامل مع السلطة الاحتلالية هو تعامل سلبي بحكم الواجب الوطني، وعصيانها وعدم الالتزام باوامرها والتحايل عليها هي مهام وطنية ملقاة على كل فلسطيني تحت الاحتلال. وفي ظل هذا الوضع اصبح الاهتمام والاشتراك الفلسطيني بالحياة العامة تحت الاحتلال ينحسر تدريجياً، واصبحت مسؤولية «المصلحة العامة» تقع على عاتق الغير، من امم متحدة ووكالة غوث وسوق اوروبية مشتركة ودول عربية متبرعة ومنظمة التحرير الفلسطينية.. الخ. ومع مرور الوقت تقلص هامش مسؤولية الفرد تحت الاحتلال لينحصر في متابعة قضايا «المصلحة الذاتية الخاصة»، وما دون ذلك اصبح مسؤولية يُفترض بالغير ان يقوم بها و«يكفي اننا نعيش تحت وطاة الاحتلال»!

وضمن مناخ «التوقعات المتنامية» المرافقة للاتفاق، والتي ينميها العديد من القيادات الفلسطينية حالياً، وتعزز بمنطق «التبريرية الاستبشارية» المطلوبة انياً للحصول على اوسع تاييد سريع، تضع القيادة الفلسطينية نفسها على المحك مع عامة الفلسطينيين، وليس مع المعارضة السياسية فحسب. فنسبة متزايدة من عامة الناس اصبحت تتوقع «العجائب» مع هذا الاتفاق. واهم هذه العجائب ان الكثيرين يتوقعون اخذ الكثير بدون ادنى عطاء. فزمن المصاعب والشدة بالنسبة لهم قد ولى، واتى وقت الرخاء والاسترخاء. كيف ولا و«السلطة الوطنية» ستقام والوعود بالتمويل تتقاطر من كل حدب وصوب لدرجة ان شمعون بيريز يقدم الوعود بالعمل على تنمية الازدهار في غزة واريحا؟! فاذا كانت الحال هي هذه الحال، ومليارات الدولارات ستتدفق على البلاد فان الكثيرين يعتقدون بانه قد حان وقت القطاف. وبهذه الذهنية تتنامى التبعية والاعتمادية «للداخل» الفلسطيني على «الخارج» الذي روّج بناته محاسن «الاتفاق».

ان المتوقع من قبل عامة الفلسطينيين في الارض المحتلة من القيادة الفلسطينية يفوق باعتقادي تصور وقدرة هذه القيادة على تلبية المطالب. فالمجتمع الفلسطيني داخل الارض المحتلة على عجل شديد، وهناك حراك تصارعي لتامين المغانم يجري على مستويات وصعد مختلفة، ولكن متشابكة. وسيكون على عاتق هذه القيادة ان تجابه ليس فقط «امتحان» الاسرائيليين و«ترقب» العالم، وانما بالاساس «التوقعات المتنامية» للفلسطينيين. وبين زوايا هذا «المثلث الحرج» سيتمحور التحدي الاساسي في المستقبل القريب. فهل ستنجح القيادة الفلسطينية في اصعب مهامها على الاطلاق: مواجهة تحديات واعباء واحمال الشعب الفلسطيني في وقت «السلم والرخاء»؟!

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية